جامعة إفريقيا العالمية

المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

الشيخ عثمان بن فودي

(دان فوديو)

بحوث الندوة العالمية التي عقدتها الجامعة بالتعاون مع المنظمة احتفاءً بذكراه

الخرطوم : ٢٦ - ٢٨ جمادى الآخرة ١٤١٦هـ / ١٩ - ٢١ نوفمبر ١٩٩٥م

تحرير

الأستاذ/ عمر أحمد سعيد الأستاذ/ عبد القيوم عبد الحليم الحسن

إصدار جامعة إفريقيا العالمية ومنظمة الإيسيسكو ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

زخرت البلاد الإفريقية بالعديد من العلماء والمفكرين والمجاهدين الذين ساهموا مساهمة بينةً فى التراث الإسلامى ، وكان لهم أثرهم الواضح فى الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية فى مجتمعاتهم . غير أنّ معظم التراث الذى خلفوه – إن لم يكن كله – ظلّ مغموراً نتيجة للغزو الفكرى ، والثقافة الوافدة التى لم تكتف بتجاهله ، بل حاولت جاهدة طمسه ومسخه وتشويهه ، مما أدى لأن يكون صانعو هذا التراث ، مجهولين فى معظم البلاد الإسلامية . ولما كان من أهداف المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة وجامعة إفريقيا العالمية ، بعث هذا التراث وإحياؤه والتعريف برجاله ، فقد اشتمل برنامج التعاون بينهما على إقامة ندوة لتكريم العالم المجاهد الشيخ عثمان دان فوديو ، مؤسس خلافة صكتو الإسلامية فى بلاد الهوسا . والشيخ عثمان دان فوديو قمين بأن يُحتفى به ، فهو من المجددين الذين نشروا تعاليم الدين وجاهدوا لإحيائها وتطبيقها . ويكفيه أنه فى عصر الجمود والتخلف ، أسس خلافةً أساسها الشرع الحنيف وأثرى المكتبة العربية الإسلامية بما يربو على مائة مؤلف .

أقيمت هذه الندوة فى الخرطوم فى نوفمبر ١٩٩٥م ، واشترك فى تقديم أوراقها ثلاثة وعشرون عالماً ومفكراً وباحثاً من داخل السودان وخارجه ، ولقد كان لها صدى واسع فى أوساط العلماء والباحثين وفى أوساط المجموعات ذات الأصول النيجيرية المقيمة فى السودان ، فقد تجاوبت معه بإقامة معرض حوى مخطوطات وآثار للشيخ دان فوديو تعرض لأول مرة . وتعتبر هذه الندوة من أكبر الندوات التى أقيمت عن الشيخ دان فوديو إن لم تكن أكبرها على الإطلاق ، وهى بلا جدال أول ندوة عنه تقدم جل أوراقها وتجرى مداولاتها باللغة العربية .

ويسر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة وجامعة إفريقيا العالمية أن تقدما هذا السفر الذى يتضمن الأوراق والبحوث التى قدمت فيها ، تعميماً للفائدة .

وتتقدم المنظمة والجامعة للذين اشتركوا فيها ببحوثهم وساهموا فى مداولاتها بالشكر الجزيل على مشاركتهم الحيوية التى كانت العامل الأساسى فى نجاحها ، وتؤكد المنظمة والجامعة عزمهما على المضى قدماً فى التعاون بينهما فى هذا المجال الحيوى الهام بغية إحياء الثقافة الإسلامية سمتاً وجوهراً ، مظهراً ومخبراً .

وبالله التوفيق ،،،

الدكتور/ عبد العزيز بن عثمان التويجرى
المدير العام للمنظمة الإسلامية
للتربية والعلوم والثقافة

البروفسير/ عبد الرحيم على محمد
مدير جامعة إفريقيا العالمية
الخرطوم - جمهورية السودان

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

ركزت هيئة التحرير اهتمامها منذ البداية لإخراج هذا الكتاب بصورة تليق وعظم موضوعه ، ومن ثمَّ رسمت الهيئة خطة متكاملة للتحرير ، تم بحمد الله تنفيذها بنجاح تام رغم الصعوبات التى واجهتها .

وكان من أولى الصعوبات ، التأكد من صحة البحوث بعد مراجعتها من الباحثين ، بعد تضمينها ملاحظات المعقبين والنقاد ، الأمر الذى جعل الهيئة ترجع للأشرطة المسجلة للندوة .

ثم صعوبة كتابة الأسماء المألوفة ، مع تعدد اختلاف الباحثين فى طريقة كتابتها بالحرفين العربى والإنجليزى . وقد كان لإلمام المحررين بهذا المجال دور كبير فى تخطى العقبات ، وقد رُئِيَ أن تكتب هذه الأسماء بالطريقة التى رسمها الباحث شريطة الاّ يخل ذلك بالصوت المألوف للكلمة وذلك لعدم وجود طريقة رسم موحدة أصلاً . فكلمة صكتو مثلاً قد تكتب صُوَكوتو ، صَكّة ، سكوتو ، سكتو ، وقد تكتب بالانجليزية Sokoto و Swakkata وغير ذلك . كما أن كلمة فودى قد تكتب بالعربية فودىْ وفودْيُو وبالانجليزية Fudi ، و Fodio و Fodoye و Foduye و Fodiye وغير ذلك . ولا يعدو الأمر فى مجمله أن يكون اختلافاً فى طرق الرسم الإملائى للأصوات الأعجمية بالحرف العربى . وما أكثر أسماء الأعلام والمواقع فى بحوث هذه الندوة ، ثم ما اضطرت إليه هيئة التحرير من معالجة بعض الأوراق المطولة باختصارها ، إضافة لعملها التحريرى فى أوراق أخرى تجنباً للتكرار ، وذلك بغرض إخراج الكتاب متوازناً . وقد تمّ ذلك بموافقة الباحثين ، وروعى فيه اتساق الموضوع وتماسكه .

أمّا فى تبويب الكتاب ، فقد تم ترتيب المحاور وفقاً للتسلسل التاريخى والموضوعى لحياة الشيخ ، بينما رتبت البحوث داخل كل محور وفقاً للترتيب الألفبائى لعناوينها متبوعة بالأبحاث المقدمة باللغة الانجليزية . ثم ذُيّل الكتاب بملاحق شملت التقرير الختامى والتوصيات ، إضافةً إلى كشّاف عام للبحوث جاءت بعده وقائع الندوة مصورةً .

ونظراً لما فى عمل التحرير من مشقة المتابعة والمراجعة المتواصلة لضمان سلامة النص ، وخروجه خالياً من الأخطاء ، فقد كان لتكثيف الجهود خلال فترة التحرير ، أثر كبير فى إخراج هذا السفر على هذا النسق ، وفى زمن قياسى ، ومن ثم نأمل أن يعذرنا القارىء الكريم لما قد يبدر من بعض الهنات .

وأخيراً لا يفوتنا أن نسجل شكرنا للأساتذة : حسن سيد أحمد الناطق ، وتاج السر بشير ، وعباس أبو نائب ، على القيام بعملية المراجعة وتصحيح الأخطاء اللغوية وغيرها طوال فترة التحرير .

كما لا يفوتنا أن نشكر كل من ساهم فى إخراج هذا الكتاب ، ونخص بالشكر الأستاذين : محمد عثمان أحمد إسماعيل ، ومهدى ساتى صالح لتعاونهما المستمر فى سبيل إخراج هذا الكتاب .

وختاماً فان الأمل معقود على أن يكون إخراج هذا الكتاب فى شموخ ومكانة المحتفى به ، ومرضياً لطموح المنظمة والجامعة .

والله الموفق

المحرران

أثر حركة الشيخ عثمان دان فوديو على دعوة المهدية فى سودان وادى النيل

البروفسير/ يوسف فضل حسن *

كان لحركة الجهاد التى فجرها الشيخ عثمان دان فوديو فى ديار الهوسا (شمال نيجيريا الحالية) فى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى أثر فكرى (وترويجى) على دعوة محمد أحمد المهدى فى سودان وادى النيل . فقد بشرت تلك الحركة بقرب ظهور المهدى المنتظر وشجعت أتباعها على تأييده . وكتب الشيخ عثمان وأخوه عبد الله وابنه محمد بلو بضعة مؤلفات حول هذا الموضوع .(١)

وجهاد الشيخ عثمان واحد من سلسلة حركات الجهاد التى اجتاحت الجزئين العربى والأوسط من بلاد السودان بقيادة فقهاء ذوى توجه إصلاحى فى القرن التاسع عشر . واشتهر من حركات الجهاد هذه ثلاث : الأولى بقيادة الشيخ عثمان دان فوديو (١٧٥٤ - ١٨١٧م) ، والثانية بزعامة سيكو أحمد (ت ١٨٤٣م) فى ماسينا ، والثالثة تحت إمرة الحاج عمر تال (ت ١٨٤٦) فى إمارة البامبرا .(٢)

وينتمى هؤلاء المصلحون الثلاثة إلى قبيلة الفولانى (التى تعود جذورها إلى منطقة فوتو تورو) . ومنذ القرن الرابع عشر الميلادى خرج بعض الفولانى من موطنهم الأصلى فى هجرات دورية بحثاً عن الماء والمرعى لأبقارهم ذات القرون الطويلة . كان أسلاف الشيخ عثمان ممن استقروا من قبائل الفولانى فى شمال نيجيريا فى منتصف القرن الخامس عشر . بينما تابعت المجموعات الأخرى هجرتها شرقاً عبر ديار برنو ووداى ودارفور حتى بلغوا سودان وادى النيل .(٣)

وفى عام ١٨٠٤ أعلن الشيخ عثمان الجهاد على حاكم إمارة غوبير ، المقاطعة التى يعيش فيها الشيخ عثمان . وكان هدف الشيخ عثمان وإخوانه محاربة الحكم الجائر الذى تفشى فى

---

* معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية - جامعة الخرطوم .

المنطقة واجتثاث الطغيان ، ونشر العدل ، وتطهير العقيدة الإسلامية مما لحق بها من شوائب ، ونشر الإسلام بين الوثنيين . وانتظم الجهاد باقى إمارات الهوسا السبع ، وامتد إلى المناطق المجاورة . وتوج هذا الجهد عام ١٨٣١م بتأسيس خلافة سوكتو .

وجدت دعوة الشيخ عثمان استجابة من أعراق مختلفة ، وانتشرت تعاليمه فى المنطقة الممتدة بين نهر النيجر وبحيرة شاد ، وما حولهما . وشملت الجماعة ، وهو الاسم الذى عرف به مؤيدو الشيخ عثمان ، الهوسا ، الفولانى ، الكانورى ، والطوارق . كان رباط العقيدة الإسلامية هو ما جمع بين هؤلاء المجاهدين وكان التزامهم بتعاليم الشيخ عثمان هو ما ألف بينهم .

عند بداية دعوته وحث الناس على الاستجابة لداعى الجهاد ذكّر الشيخ عثمان بن فودى الناس بقرب نهاية العالم . وألف فى ذلك كتاباً بعنوان (تنبيه الأمة على قرب هجوم أشراط الساعة) . وأورد فيه أن بعض تلك الأشراط قد ظهر كما أخبره النبى صلى الله عليه وسلم . ويقول : (مقصدنا فى تنبيههم على قرب هجوم تلك الأشراط حثهم على الاحتياط على أنفسهم بالتوبة قبل أن يحال بينهم وبين تدارك ما فرط منهم) . وذكر الشيخ عثمان عشرة شروط رابعها ما ورد فى خروج المهدى رضى الله عنه(٤) . ومن مؤلفاتهم : القول المختصر فى أمر الإمام المنتظر ، وتنبيه الإفهام على أن المهدى هو الختام والمهدى المنتظر .(٥)

وفكرة المهدى أو المنقذ الموعود قديمة فى تاريخ الإسلام وكان الشيعة أول من روج لها حتى صارت ركناً هاماً من أفكارهم ، وتبناها من بعدهم المتصوفة . وكتب عنها محى الدين بن عربى (١١٦٥ - ١٢٤٠) . فى الفتوحات المكية وعنقاء مغرب ، وفيها أسهب عن المهدى المنتظر ، وجعله على هيئة "قطب صوفى" .

تأثر علماء السنة بهذه الأفكار ، ولكنهم كانوا أكثر اعتدالاً فيما خلصوا إليه . إذ يرون المهدى بمثابة المصلح الدينى أو المجدد ، وربطوا ذلك بما يروى من حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد دينها " .(٦)

ومع أن لفظ المهدى لم يذكر صراحة فى القرآن الكريم فقد ورد فى اثنين وثلاثين حديثاً درسها العلامة ابن خلدون (١٣٣٦ - ٥ - ١٤٠٦) وذكر ما يأخذه على رواتها ، وقال إنها لم

ترد فى صحيحى البخارى ومسلم ، إلا أنه اعترف بقوة أسانيد بعضها مثل ما رواه الحاكم . قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ، ثم يخرج من أهل بيتى رجل يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً " .

ومع ذهاب ابن خلدون إلى ضعف جل هذه الأحاديث يختم نقده بقوله : "اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مر الأعصار أنه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على الممالك ويسمى بالمهدى ...." (٧)

وفى عهد الشيخ عثمان كانت فكرة المهدى المنتظر قد سادت بين عامة الناس ، ويدل ما اطلعت عليه من مؤلفات الشيخ وأعوانه أنهم كانوا على علم بدقائق هذا الأمر فأعلنوه وروجوا له بين أتباعهم ومريديهم وذاعت فكرة قرب ظهور المهدى المنتظر . ودنو قيام الساعة فى المنطقة الواقعة بين النيجر وشاد .

ولعل مما يوضح شيوع هذه الأفكار مثالان أولهما كتاب "تحذير الإخوان من إدعاء المهدية الموعودة فى آخر الزمان" للشيخ عثمان بن فودى . وفيه يناقش كثرة الحديث عن دعوى المهدية فى زمنه وإضفائها عليه ، ويخلص إلى أنه ليس "بالمهدى المنتظر" ونص ذلك بعبارته : "اعلموا أيها الإخوان أن ادعاء المهدية مما ابتلى به الناس قديماً وحديثاً ... اعلموا أيضاً يا إخوان أن خروج المهدى أمر مقطوع به ، وأن كونه شريفاً أمر مقطوع به ، وأن كونه من ذرية فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم هو الصحيح الذى عليه الجمهور" (٨) . ويضيف الشيخ عثمان : "واعلموا أيضاً يا إخوانى بأنى لست بالإمام المهدى ولا ادعيت المهدية . قال إنما يسمع ذلك من أفواه الناس وقد بلغت فى تحذيرهم من ذلك ، وقد صرحت برد ذلك فى تواليفى العربية والعجمية (أى الفولانية والهوساوية) .... وبهذا تعلم أنى لست بالإمام المهدى كما يظنه جهال أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم . لأن المهدى شريف من أولاد بنته فاطمة رضى الله عنها قطعاً ، ولا أعرف ذلك فى نفسى ..." وأبان الشيخ عثمان أن للإمام المهدى "أوصافاً وأسراراً لا يتصف بها غيره" . وتساءل الشيخ عثمان : "كيف ادّعى المهدية وقد ولدت فى بلاد السودان فى مكان يسمى مرت ؟ وقد عرف فى الأحاديث النبوية أن المهدى يولد بالمدينة" .(٩)

ورغم نفى ابن فودى البات لأتباعه ادعائهم له بأنه (المهدى المنتظر) وأنه غير مؤهل لتلك الرسالة ، فانه لم ينكر الاعتقاد السائد آنذاك من أن ظهور المهدى وشيك الحدوث . وهذا هو المثال الثانى . فالشيخ عثمان أكد ذلك واستحث الناس على تأييد دعوة المهدى .(١٠)

وجاء فى رسالته للجماعة بالشرق من أهل زنفر وكتسينا ، وكانو ودورا أن يردوا عليه فيلقاهم ... فلما حان وقت الخريف وأقبلوا أرسل مكانه ابنه محمد بلو الذى روى : "وأخبرت الكل بأن الوالد حياهم وأمرهم بالمبايعة على السمع والطاعة واتباع السنة قولاً وفعلاً ... فسمعوا وقبلوا . وأخبرتهم بأنه يبشرهم بأن الله يفتح عليهم البلاد ويمكنهم فى الأرض ... وأخبرتهم بما بشرهم به من قرب ظهور المهدى وأن جماعة الشيخ طلائعه . ولا ينقض بإذن الله هذا الجهاد حتى يفضى إلى المهدى فسمعوا واستبشروا ... " .(١١)

ويبدو أن ربط الشيخ عثمان للجهاد بظهور المهدى ودنو الساعة قد ألهب الحماس الدينى فى نفوس سكان منطقة النيجر - شاد - وغرس فى نفوسهم حب الشهادة ونكران الدنيا الفانية . فى ذلك المناخ ظهر بعض من ادعوا المهدية مثل حما الذى أعلن مهديته بين الطوارق ، ومع أنه حقق بعض النجاح فى أول أمره فقد قضى عليه بتوجيه من الشيخ نفسه . ونجد تفاصيل هذا الخبر فى كتاب تحذير الإخوان : ومما ذكره عنه الشيخ عثمان : "والعجب أنى رأيت رجلاً فى العوام يدعى الولاية وقد جاء نا زائراً ولم نتعرض لنهيه عن ادعائه بذلك . ثم جاء نا ثانياً زائراً وهو يدعى المهدية . فنهيناه عن ذلك . فرجع إلى مكانه ولم يرجع عن ادعائه بذلك بل تمادى حتى فشا أمره بين التوارك (الطوارق) فأشكل عليهم أمره .... واستفتوا الشيخ عثمان فى ذلك وكان رده أن (الرجل ليس بمهدى : كونه فى مقام العوام ولم يبلغ مقام الطلبة ..." .(١٢)

كان لمثل هذه الدعاوى الباطلة ، واكتمال مراحل الجهاد الأولى بنجاح فى نهاية عام ١٨٠٨م ، أثر فى دفع الشيخ عثمان لمراجعة بعض أقواله ففى البدء كان الشيخ عثمان ، كما أوضحنا ، قد خصص بعض مؤلفاته للحديث بإسهاب عن المهدى وقرب ظهوره ، وارتبطت تلك المؤلفات وما صحبها من أقوال الشيخ فى أذهان كثير من معاصرى مرحلة بداية الجهاد بنهاية القرن الثانى عشر الهجرى (٥ - ١٧٨٦م) وهو ما يتفق مع فكرة (إمام القرن) الذى

سيجدد الدين . وقد أخذ الشيخ عثمان برأى العلامة عبد الرحمن السيوطى (ت ١٥٠٥) الذى حدد فيه موعد ظهور المهدى بأحد تاريخين ١٢٠٠هـ / ٥ - ١٧٨٦م و ١٢٠٤هـ/ ٨٩ - ١٧٩٠م ، ونسبة لذيوع كتب عبد الرحمن السيوطى فى أواسط بلاد السودان وغربه صار لهذه التواريخ مغزىً كبير بين عامة المواطنين وقادتهم .(١٣)

وبما أن فرضيات السيوطى لم تتحقق فقد طرحها الشيخ عثمان جانباً مؤكداً أن الموعد الدقيق لظهور المهدى غير معروف ، وجاء فى رسالته تنبيه الفاهم ، أن ما أشار إليه مرات فى حلقات الوعظ فى ما يختص بقرب ظهور المهدى بنى على تفسيره لرأى السيوطى فى الأمر . ولكن بعد التحقق يعترف الشيخ بأنه لا يعرف الموعد الصحيح على أى درجة من اليقين .(١٤)

وذكر الشيخ عثمان فى كتاب تنبيه الأمة على قرب هجوم أشراط قيام الساعة فى معرض حديثه عن خروج المهدى (بعد عام ١٢٠٤هـ : "واما أنا فقد أدركت ذلك ولم أر المهدى فحكمت ببطلان ذلك . وقد تقدم أن العلماء رضى الله عنهم قالوا ، لم يرو قط حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تعيين وقت وقوع الساعة وفى تعيين أشراطها . فظهر بهذا أن كل ما يروى فى التواليف أو سمع عن الأفواه .... باطل لا أصل له من الشارع عليه الصلاة والسلام" .(١٥)

كان هدف الشيخ عثمان من ذلك تخفيف غلواء التطرف التى ظهرت بين أتباعه وتأكيد موقفه من أنه ليس بالمهدى المنتظر . الا أنه قبل ما كان متداولاً من أخبار عن قرب موعد خروج المهدى فأوصى مؤيديه باتباع المهدى ، مؤكداً أن الجهاد لن ينتهى الا أن يشرع المهدى فى مهمته .

نتج عن هذه العلاقة الوثيقة التى تمت بين الجهاد الفولانى "وقرب ظهور المهدى" سلسلة من النبوءات يمكن إجمالها فى ظهور المهدى فى الشرق . وتكشف بعض الارهاصات عن خروج المهدى فى مكة المكرمة أو فى جهة من بحر النيل (فى السودان الشرقى) . وتروى هذه الأخبار أن ظهوره ستسبقه فترة من الجفاف والمجاعات والفتن والحروب التى تجتاح بلاد المغرب والجزء الغربى والأوسط من بلاد السودان . وبناء على ذلك سيهجر سكان تلك البلاد أوطانهم ويهاجرون لمقابلة المهدى ومبايعته . وانتشرت هذه النبوءات انتشاراً واسعاً حتى صارت عقيدة

فأفضت إلى هجرات جماعية من خلافة سوكتو إلى الحجاز وسودان وادى النيل .

بدأت الهجرة منذ مطلع القرن التاسع عشر وتضاعفت كثافتها فى منتصف الثلاثينات . ولا شك أن الدعوة للهجرة والباعث وراءها أزعج حكام سوكتو لما تسببه تلك الهجرات من نقصان فى السكان والأراضى . وكان أول الحكام تصدياً لذلك أمير المؤمنين أبو بكر العتيق بن الشيخ عثمان (٣٧ - ١٨٤٢) الذى أصدر مرسوماً يعلن فيه أن وقت الهجرة لملاقاة المهدى لم يحن بعد ، إذ أنه (وبلاده) ما زالا ينعمان بالخير .(١٦)

ولعل تفاصيل المرسوم أعلاه هو ما ذكر فى "وصية انتقال أهل حوس (الهوسا) إلى النيل من أمير المؤمنين أبى بكر العتيق ... إلى جماعة قنذ (قوندو) " .

"فباعث الرسم ، إعلامكم بأن كثيراً من هذه الجماعة عاصروا شيخنا الوالد لكن شغلتهم الدنيا عن سؤاله عن بعض الأسرار والأمور المستقبلية التى يحلو لهم أن يسألوا منها .... ومنهم من عاصر أخانا محمد بل (بلو) فغفل أيضاً عن سؤاله ... ولكن نعلمكم بشىء واحد مما أخبرنا الشيخ وهو أن جماعة أهل الرباط الذين نصبوه هم الذين ينتقلون إلى بحر النيل وإلى بلاد الحجاز ، هم بعينهم وذريتهم . وهم بقية أمراء الشيخ ، وفيهم نوره وبركاته ، وهم يجتمعون بالإمام المهدى ويبايعونه ومعهم رايات الشيخ ... ومقامهم عند الله عظيم . وأما من خرج من الرباط ورجع القهقرى إلى محله الأول فلا يعد فيهم لأنه نكص على عقبيه . وكذلك من بقى من أهل القرى ... فلا يصل معهم إلى بحر النيل وإلى بلاد الحجاز وإلى مبايعة المهدى بل أكثرهم يتوجهون إلى بلاد الغرب فيمكثون هناك فى بلاد الكفار".(١٧)

وعلى نفس الوتيرة نجد رسالة الأم مريم بنت الشيخ عثمان إلى أمير كنو .... " فالقصد إعلامكم بأن الذين ينتقلون من أرض الهوسا هذه ويزعمون أن الهجرة منها قد آن ويزعمون أنهم على الصواب ..... فانهم قوم ضالون ، ولا دليل لهم ولا مستند ... وقد ذكر الشيخ الوالد أن نهاجر من أرض الهوسا ولم يعين ذلك الوقت ... حتى أنه .... بين لنا طريق الهجرة فقال فى ذلك مربع (ثم ذكر أربعة عشر موضعاً) ، آخرها .... النيل ... إلا أنه أرخ إذا جاء ذلك الوقت لا يخفى عن أحد ، بل هو كنار على علم ومن علامات ذلك (قلة) المطر" .(١٨)

ومع أن هذه التوجيهات لم تؤد إلى إيقاف فيضان الهجرة إلى الشرق فإن الرسالة الأخيرة

تبين الاهتمام الكبير الذى أولاه الشيخ عثمان دان فوديو لطريق الهجرة وذلك بتحديد نقاط السير حتى منطقة جبال النوبة .

استمر سيل الهجرات طوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ولعل مما زاد من تدفقه تنامى الفتن والاضطرابات فى خلافة سوكتو ، وما صاحب ذلك من توغل قوى الاستعمار الأوربى وإحكام قبضتها على كثير من الدول الإفريقية . واعتبر المترقبون لظهور المهدى مظاهر الاضطراب والتدخل الأوربى فى شئون البلاد الإسلامية من علامات قرب موعد ظهور المهدى .

ومهما يكن من أمر الدوائر الرسمية فى الخلافة السوكوتية فإن الإرث المهدى تملك أفئدة معظم مواطنى المنطقة الواقعة بين النيجر وشاد ومنهم انتقل مع المهاجرين إلى سودان وادى النيل . ومن رواد تلك الهجرات على الكرار ، جد الخليفة عبد الله ، الذى استقر بين التعايشة فى جنوب دارفور .

ولعل خير ما يصف المناخ المهدى الغالب على منطقة النيجر – تشاد والمتمثل فى الإيمان المطلق بالمهدية ما أكده حياتو بن سعيد ، حفيد الشيخ عثمان دان فودى عندما خاطب المهدى معلناً نصرته ، عام ١٨٨٣م : "قد بايعتك أنا ووالدى وجميع ما تعلق بى قبل ظهورك الحسى وشأننا مع شأنك معلوم عندنا سيما وقد أوصانا الشيخ عثمان بن فودى ... بالهجرة إليك ونصرك ومعيتك إذا ظهرت ونحن معك قلباً وقالباً فى نصر دين الله وسنة رسوله" .(١٩)

لما خرجت جماعات المهاجرين من خلافة سوكتو متجهة نحو الشرق كانوا يقصدون بلاداً تربطهم بها صلات اجتماعية ، واقتصادية وثقافية . فإلى تلك البلاد خرج رواد الهجرات الفولانية منذ القرن الخامس عشر . وكانت حركتهم فى بلاد السودان ، حزام السافنا ، الممتد من ساحل البحر الأحمر شرقاً إلى سواحل المحيط الأطلسى غرباً ومن تخوم الصحراء الكبرى شمالاً إلى الغابات الاستوائية جنوباً . ويقسم الحزام السودانى عادة إلى محورين شرقى ويشمل سودان وادى النيل وغربى ويشمل كل الأراضى الواقعة غرب دارفور . إلا أننى أميل إلى تقسيمه إلى ثلاثة محاور شرقى وهو ما ذكرناه ، وأوسط ويمتد من وادى ، عبر كانم ، برنو ، بلاد الهوسا إلى صونغى ، ويتكون المحور الغربى من البلاد الباقية ومن أهم سكانه الفولانى والتكرور . وقد غلب الإسلام على أجزاء كبيرة من هذا الحزام فى أوقات

مختلفة بين القرن العاشر والخامس عشر . وينتمى قاطنوه عامة إلى مذهب الإمام مالك ، وأكثر الطرق الصوفية انتشاراً فى بلاد السودان القادرية (وإليها ينسب الشيخ عثمان بن فودى) وتليها التجانية (التى كان ظهورها متأخراً) . وقد ازدهرت فى هذه الأقاليم سلسلة من الممالك الإسلامية السودانية . وفيها كانت تعاليم الإسلام هى الغالبة على نظم الحكم والقانون والتعليم وكان الفقهاء المتجولون والمتصوفة يشكلون همزة وصل هامة بين هذه السلطنات .

وكان لبلاد السودان علائق تجارية وثقافية مع شمال إفريقيا وغربى الجزيرة العربية . ويهمنا هنا ما يربط بين المحورين الأوسط والشرقى .

فمن دارفور التى تحتل مركزاً وسطاً بين الإقليمين خرجت ثلاث طرق رئيسية للقوافل يتجه أولها إلى مصر (عبر درب الأربعين) وثانيهما إلى طرابلس عبر فزان ، بينما يتجه الثالث إلى واداى ، وبرنو وبلاد السودان الغربى ويمتد شرقاً إلى كردفان وسنار والحجاز عبر مينائى سواكن ومصوع . ويبدو أن الطريق الأخير هو أقدم طرق التجارة بين نهرى النيجر والنيل ، وإلى جانب أهميته التجارية فقد كان مطروقاً بالحجاج ، وقد عرف فيما بعد (بطريق الحج) أو طريق السودان .(٢٠)

إلى جانب فوائدها الاقتصادية كان للقوافل التجارية دور كبير فى تسهيل حركة الطلاب والعلماء الذين يسافرون فى معيتها مما مهد للتواصل الدينى والثقافى ويسر تلاقح الأفكار بين المنطقتين المعنيتين . ولا شك أن سيادة المذهب المالكى والتشابه فى وسائل التعليم والمناهج التربوية والكتب الأساسية فى الحزام السودانى ، بصورة عامة ، ساعدت على انتقال المعلمين والطلاب بين إقليم وآخر . وكانت هذه الحركة ذات اتجاهين .(٢١)

مثال ذلك ما رواه ابن ضيف الله أن نحو الف طالب من التكرور قد انخرطوا فى خلوة الشيخ القدال(٢٢) . والتكرور (أو التكارنة) اسم مرادف للفولانى (أو الفلاتة) . ويستخدم فى سودان وادى النيل للإشارة (للغرابة) القادمين من البلاد الواقعة غرب دارفور ويشمل التكرور والفولانى ، والهوسا وسكان برنو ودار برقو(٢٣) . ومن أشهر من شقوا طريقهم إلى بلاد السودان الأوسط (وما وراءه) الشيخ أحمد بن محمد النويى اليمانى القادرى المالكى المولود فى حلفاية الملوك عام ١٦٣٠م . درس الشيخ أحمد فى أربجى وسلك الطريق القادرى على

الشيخ دفع الله بن محمد العركى . وبعد أن تبحر فى المعارف الصوفية ، خرج عام ١٦٦٦م فى رحلة (عالم متجول) حتى بلغ برنو . وبعد أن مكث فيها ردحاً من الزمن ، فى صحبة نخبة من العلماء الأجلاء ، تابع السير إلى آهير ، ثم بلاد المغرب . وتكشف سيرة الشيخ أحمد اليمانى النقاب عن كيفية نقل تعاليم وممارسات الطريقة القادرية ، المنتشرة فى سودان وادى النيل ، إلى الغرب . وقد أدى تجوال الشيخ أحمد إلى ربط مجتمع سودان وادى النيل بمجتمعات حوض شاد وأواسط الصحراء الكبرى والمغرب .(٢٤)

وكان لانتشار الطريقة القادرية (والتجانية مؤخراً) بين كثير من مواطنى المنطقتين المعنيتين دور كبير فى ترسيخ روابط الإخاء بروح لا تعرف موانع عرقية أو حدوداً سياسية .(٢٥)

أدى توسع رقعة الإسلام فى بلاد السودان قاطبة إلى تكاثر عدد الحجاج . وبحلول القرن الثامن عشر صار (طريق السودان) هو الخيار الأول للجزء الأكبر من قوافل الحجيج القادمة من بلاد السودان الأوسط . وعند بدايته كان الطريق يتكون من فروع كثيرة أهمها فرعا كاتسينا فى ديار الهوسا وميدوغرى فى برنو . ويلتقى الفرعان فى دارفور قبل دخولهما سودان وادى النيل .(٢٦)

وقد أدت حركة الحجيج المتضاعفة فى القرن التاسع عشر ، لتدفق الحجيج تحت باعث الهجرة إلى الشرق ، إلى التقارب بين سكان بلاد السودان الأوسط والشرقى ، وتولد عن ذلك درجة من التكامل الاجتماعى والثقافى وفوق ذلك تسببت هجرات الفولانى البطيئة وقوافل الحجيج عبر عقود من الزمان فى إقامة مجتمعات من الفولانى والهوسا ، والكانمبين ، والكتوكو والمايا فى كل من دارفور وسودان وادى النيل .(٢٧)

لقد أسهبت فى عرض مظاهر التواصل بين السودان الشرقى والسودان الأوسط ، وكذلك الظروف التى صاحبت قرب ظهور المهدى ومكان خروجه لأن ما بشر به الشيخ عثمان قد روج لظهور المهدى وهيأ المناخ المناسب لقبول دعوته .

ولا شك أن أخبار حركة الفولانى ، وتعاليم زعيمها الشيخ عثمان خاصة ما يتعلق بالمهدى المنتظر كانت متداولة ، على الأقل فى الأجزاء الغربية من سودان وادى النيل . وأن تقاطر المهاجرين فى (هجرة) بقصد ملاقاة الإمام المهدى ومبايعته قد أسهمت فى الترويج لفكرة

ظهور المهدى وخلق جو ملائم لها . وعليه يبدو وكأن شعب سودان وادى النيل كان على استعداد لتقبل دعوة المهدى .

ولد محمد أحمد بن عبد الله (١٨٤٤ - ١٨٨٥م) فى جزيرة لبب والتى تعرف بجزيرة الأشراف ، بالقرب من دنقله من أسرة ترجع بنسبها إلى الحسن السبط بن الإمام على بن أبى طالب وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبهذا النسب يستوفى أحد الشروط التى رأى الشيخ عثمان دان فوديو ضرورة توافرها فيمن يتسربل برداء المهدية .

نشأ محمد أحمد فى جو سودانى تقليدى ، فحفظ القرآن ودرس الفقه فى مسيد ود عيسى ، وأتقن النحو والتوحيد فى الغبش ببربر . وهناك مالت نفسه إلى التصوف ونزعت إلى الزهد . وفى أم مرح انخرط فى الطريقة السمانية على زعيمها الشيخ محمد شريف نور الدائم . فأقام عنده منقطعاً إلى الصلاة والعبادة وغلب التقشف والنسك عليه . وبعد سبع سنين من السلوك الصوفى الصارم عين شيخاً وأعطى راية وأذن له فى تسليك المريدين والذهاب حيث شاء .

بعد فترة من العمل فى صناعة السفن والتجوال لتسليك المريدين والتعرف على أحوال الناس انقطع محمد أحمد إلى العبادة فى الجزيرة أبا على النيل الأبيض وهناك شيد مسجداً وحفر غاراً يلوذ إليه للعبادة .

ومن الجزيرة أبا قام الشيخ محمد أحمد بالعديد من الرحلات لأجزاء متفرقة من البلاد متفقداً لأحوال البلاد وداعياً للإصلاح . كان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كان ينهى الناس عن المفاسد وتجنب البدع ويدعوهم إلى الحق ، كانت تلك بداية حركة الإصلاح التى ظهرت واضحة فى معارضته لبعض ممارسات أستاذه محمد شريف نور الدائم فى سنة ١٨٧٨م . وإثر خلاف بين الشيخ محمد أحمد وأستاذه ارتحل إلى منافسه الشيخ القرشى ولد الزين رئيس أحد فروع الطريقة السمانية وفى كنف ذلك الموضع ذاع صيته وزاد رفعة فى مدارج الطريقة التى تبوأ زعامتها عند وفاة الشيخ القرشى . (٢٨)

عند نهاية سلطنة الفونج الإسلامية (١٥٠٤ - ١٨٢١م) على يد الجيش التركى - المصرى . فقد المتصوفة المكانة السامية التى كانوا يتبوءونها عند السلاطين وبين عامة الناس . واحتل

مكانهم فى العهد الجديد العلماء الرسميون الذين تخرج جلهم من الجامع الأزهر . ومن هؤلاء وجدت الدولة التأييد الرسمى والعون على إدارة البلاد . أما الفقراء والعلماء التقليديون فقد كانت وطأة الحكم الأجنبى ذى النزعة الاستعمارية ثقيلة عليهم .(٢٩)

صدم محمد أحمد ، وليد المؤسسة الصوفية ، كما صدمت قطاعات كبيرة من المجتمع السودانى ، بغربة النظام التركى المصرى ، وقسوته وشدة بطشه وما صاحب ذلك من فساد الأداة الحكومية ، وفداحة الضرائب ، وممارسة الرشوة ، وانتشار البدع ، واعتماده على بعض المسيحيين فى وظائف قيادية . كان الشيخ محمد أحمد واعياً بالظلم الذى حاق بأبناء جلدته ، وكان مشفقاً من ابتعاد الناس عن العقيدة الحقة ، ومدركاً لتفشى الانحرافات الخلقية . فأخذ بمبدأ الإصلاح الدينى سبيلاً لإقامة العدل وخلق مجتمع إسلامى سليم .(٣٠)

كان محمد أحمد نتاج المؤسسة الصوفية الجديدة المتأثرة بحركة البعث الإسلامى التى ازدهرت فى الحرمين الشريفين وفى نجد فى نهاية القرن الثامن عشر تكونت حركة الإصلاح من ثلاثة عناصر أو جماعات : الوهابية أو السلفية ، مدرسة أهل الحديث والطرق الصوفية الجديدة . وكانت الجماعتان الأخيرتان وثيقتى الصلة ببعضها وكانتا تمثلان المجتمع العلمى ذا الصبغة العالمية الذى أزدهر فى الحرمين الشريفين ، مكة والمدينة .

تنسب الجماعة الأولى للإمام محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٣م) وتعرف عند أصحابها (بالموحدين) نسبة إلى التوحيد بالله . دعا الإمام محمد إلى العودة إلى أصول الدين : القرآن والسنة ، وسعى لتحقيق التوحيد وتصحيح العقيدة مما لحق بهما من أدران الشرك والبدع والخرافات .

أما أهل الحديث فأكدوا ضرورة التشدد والنقد فى دراسة أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم . وكان معيارهم فى التأكد من صحة الحديث تطابقه مع ما جاء فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة . وكانوا يسعون أيضاً لرفع المستوى الخلقى للمجتمع باجتثاث الممارسات السلوكية التى لا تسير على نهج الكتاب والسنة . وكان علماء الحديث أمثال الشيخ محمد صالح الفولانى (١٧٥٣ - ١٨٠٤) والشيخ محمد حياة السندى المدنى على صلة وثيقة بحركة التصوف الجديدة وفى نطاقها وضعت أسس الطريقة الصوفية الجديدة . وكان ممن

أسهموا فى هذا الجهد وتأثروا بجو الإصلاح المتفشى فى الحرمين الشيخ مصطفى البكرى (١٦٨٩ - ١٧٤٩) أحد كبار المجددين فى الطريقة الخلوتية ، وتلميذه الشيخ محمد عبد الكريم السمان (١٧١٨ - ١٧٧٥) مؤسس الطريقة السمانية وممن أسهموا فى الجهد الإصلاحى بصورة فعالة الشيخان أحمد بن إدريس (١٧٥٠ - ١٨٣٠) وأحمد التجانى (١٧٣٨-١٨١٥) . وقد كان لهما أثر كبير على حركة البعث الصوفى التى اجتاحت بلاد السودان .

من الحرمين الشريفين نقل الطلاب السودانيون والحجيج ودعاة الطرق الصوفية تعاليم البعث الصوفى الجديد خلال العقدين الأخيرين من تأريخ سلطنة الفونج الإسلامية وكان أول الدارسين قدوماً الشيخ أحمد الطيب البشير (١٧٤٢ - ١٨٣٣) الذى أدخل الطريقة السمانية فى البلاد والشيخ محمد المجذوب الصغير (١٧٩٦ - ١٨٣٢) حفيد مؤسس الطريقة المجذوبية فى السودان . والداعية الصوفى السيد محمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ - ١٨٥٣) مؤسس الطريقة الختمية فى السودان . وقد تتلمذ الشيخان الأخيران على الشيخ أحمد بن إدريس . واشتهر أقطاب هذه الطرق بغزارة العلم ووفرة المؤلفات(٣١) . ولا شك أن الجو الإصلاحى الذى غلب على الحجاز ونجد قد ألقى ببعض ظلاله على ما كان الشيخ محمد أحمد يسعى لتحقيقه .(٣٢)

عبر الشيخ محمد أحمد عن الوعىّ الاجتماعى بالظلم ومظاهر التفسخ الأخلاقى بالدعوة للإصلاح الدينى ومحاربة الفساد ، ولكن دعوته هذه سرعان ما تسربلت برداء فكرة المهدى المنتظر . ولم تكن فكرة (المهدى المنتظر) غريبة على المتصوفة أو عامة الناس فى تلك المنطقة . كان الناس وهم فى العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى يتوقعون الخلاص على يد المهدى الذى سمعوا كثيراً بقرب حلوله .

تشكل وعى محمد أحمد بفكرة المهدى المنتظر من أدبيات المتصوفة وكتب التاريخ الإسلامى ومن ما تداولته قطاعات واسعة من الشعب السودانى وما نقل عن الشيخ عثمان دان فوديو والمهاجرين من أواسط بلاد السودان .

من كتب المتصوفة (وغيرهم) التى اطلع عليها محمد أحمد مؤلفات الإمام الغزالى وعبد الوهاب الشعرانى ، والشيخ أحمد بن ادريس وعمر بن الوردى وشهاب الدين أحمد بن

حجر وابن خلدون وعبد الكريم السمان ومحمد على السنوسى والشيخ أحمد الطيب البشير ومحمد عثمان الميرغنى وغيرهم .(٣٣)

ومن أشهر هؤلاء الكتاب محى الدين بن عربى الصوفى العالم الذى أشرنا إليه من قبل . أفرد ابن عربى فصلاً خاصاً عن المهدى فى الفتوحات المكية . ومما جاء فيه "اعلم أيدنا الله وإياك أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملؤها قسطاً وعدلاً ... من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة (وابنها) الحسن بن على بن أبى طالب .... يواطىء اسمه اسم رسول الله .... فى الخلق بفتح الخاء وينزل عنه فى الخلق بضم الخاء .... وهو أجلى الجبهة أقنى الأنف ..... يقسم المال بالسوية ويعدل فى الرعية ..... يقيم الدين وينفخ الروح فى الإسلام ... يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص .... أعداؤه مقلدة العلماء .... يفرح به عامة المسلمين أكثر من خاصتهم . يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف وتعريف إلهى" .(٣٤)

ويذكر فى موضع آخر : "وأما هو فى نفسه فصاحب سبق حق وسياسته مرتبة .... ظهور المهدى من أشراط الساعة .... فما يحكم المهدى إلا بما يلقى إليه الملك من عند الله الذى بعثه إليه" .(٣٥)

وما وصفه ابن عربى يحدد مؤهلات المهدى المنتظر ويبين برنامجه ، ولا غرابة أن يلتزم محمد أحمد المهدى بكثير مما جاء فيه عند الإفصاح عن دعوته .

ومن الروايات المتداولة حينذاك ما ذكره الشيخ محمد أحمد من أن أستاذه محمد شريف نور الدائم كان يحدثهم فى مجالسه عن كرامات المهدى المنتظر ومقامه .(٣٦)

وذكر الحسن سعد العبادى أنه سمع فى سنة ١٢٩١هـ : "من أحد الأولياء الصالحين أن الإمام المهدى سيخرج فى ١٢٩٨هـ ومن ابتداء دخول هذه السنة صرت أنتظره لأكون من أعوانه وخدامه الصادقين" (٣٦) . ومما روى عن القرشى ود الزين ، آخر أساتذة محمد أحمد ، حول قرب ظهور المهدى قوله : "اديته بنتى وفرسى وأنا موعود أن فرسى ده يركبه المهدى" (٣٧) . ونقل عن الشيخ أحمد الطيب البشير ، مؤسس الطريقة السمانية : "أن زوال ملك الأتراك مقرون بظهور المهدى وأنه سيكون من طريقتهم" . وأشار الشيخ إبراهيم

عبد الدافع إلى قرب ظهور : "العرب حملة الرماح الطوال راكبين البقر مع المهدى" .(٣٨)

لا شك أن محمد أحمد قد سمع ما يروجه الحجاج والمهاجرون عن قرب موعد ظهور المهدى المنتظر فى بحر النيل ، وعرف ما وجه به الشيخ عثمان دان فوديو الجماعة فى خلافة سوكتو ليهبوا إلى لقائه وتأييده .

وخلاصة القول أن فكرة (المهدى المنتظر) كانت مثبتة فى الكتب المتداولة بين العلماء والمتصوفة فى البلاد ومعروفة بين الخاصة والعامة من المواطنين خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر للهجرة .

ورغم الإرهاصات والتوقعات التى لازمت فكرة قرب ظهور المهدى ورغم ما يتميز به محمد أحمد من علم وخطابة وخلق وصلاح وحماس للقضية الإسلامية وتصوف وزهد وأهلية لقيادة المجتمع فإن محمد أحمد لم يتعجل الأحداث . وتروى مناشير الدعوة أنه كان قبل توليه لمهام المهدى كان يدعو لإقامة الدين وإصلاح حال العباد . وكان يرقب خروج المهدى ويأمل أن يكون من أتباعه وأعوانه ويقول : (مع أنى كنت استبعد ذلك لنفسى وانتظر المهدى لأن أكون له عوناً وخادماً لتأييد السنن النبوية .(٣٩)

ويبدو أن عام ١٢٩٧/١٨٧٩م كان عاماً حاسماً فى تاريخ محمد أحمد الصوفى العالم والمصلح الدينى وفى مسار فكرة المهدى المنتظر . فحتى ذلك التاريخ كان الاعتدال أغلب على مسيرة محمد أحمد الإصلاحية وكان نهجه لا يتجاوز تنبيه الحكام ورجال الدين على مظاهر الفساد الاجتماعى وابتعاد الناس عن الدين الحق . كان الوعظ والإرشاد قوام ذلك الإصلاح .

فى منتصف نفس العام صار نهجه الإصلاحى أكثر ايجابية وجرأة إذ بدأ يعمل لبناء مجتمع دينى تنطبق عليه مقومات مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فى منطقة نائية . وقام بزيارة عمل ناجحة لكردفان فقابل رجال الدين أمثال الشيخ اسماعيل الولى (مؤسس الطريقة الاسماعيلية) والشيخ اسماعيل المنا ، وآل الشيخ بدوى أبو صفية . ومن الأعيان التقى بالياس باشا ام برير ، وقابل كبار التجار الذين كانوا على غير وفاق مع العهد التركى – المصرى ، وكذلك زعماء القبائل الذين التقاهم فى طريق عودته ، ووثق صلته بهم . وتركت تلك الزيارة أثراً حسناً فى الأواسط الشعبية وكانت رحلاته تلك خير سند له

عندما أفصح عن دعوته .(٤٠)

ويروى نعوم شقير أن (من عادة محمد أحمد أن يخرج سائحاً مع بعض أصحابه لإنذار الناس بطريقته ودعوتهم إلى الله ثم يعود إلى محل إقامته فى أبا . وقد جال جميع البلاد من دنقله إلى سنار شمالاً وجنوباً ومن النيل الأزرق إلى كردفان شرقاً وغرباً ، ورأى بعينه وحدة الناس خاصتهم وعامتهم وشدة رغبتهم فى التخلص منها) .(٤١)

وعندما سمع محمد بوفاة شيخه الشيخ القرشى أسرع الخطى إلى المسلمية لتقديم العزاء فيه عند مطلع عام ١٢٩٨/١٨٨٠ ذهب محمد أحمد فى حشد كبير من تلاميذه ومريديه ، وهناك شرعوا فى تشييد قبة فوق قبره . وبينما الناس مشغولون فى البناء قدم عليه عبد الله ابن محمد آدم تورشين ، حفيد على الكرار المتقدم ذكره .

ويفصل نعوم شقير الخبر على نحو درامى مفاده : (فلما رأى محمد أحمد وقع مغشياً عليه ، ولم يفق من غشيته إلا بعد مدة ، فلما أفاق عاد فنظر إلى محمد أحمد وتقدم إلى مصافحته فأغمى عليه مرة ثانية . ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد حبواً على الأرض فأخذ يده وشرع يقبلها وهو يرتعد ويبكى فسأله محمد أحمد عن هويته وشأنه .... ورد قائلاً : "أنا عبد الله .... من قبيلة التعايشة ، البقارة ، وقد سمعت بصلاحك فى دار الغرب فجئت لأخذ الطريق عنك . وكان لى أباً صالحاً من أهل الكشف . وقد قال لى قبل وفاته إنك ستقابل المهدى وتكون وزيره . وقد أخبرنى بعلامات المهدى وصفاته فلما وقع نظرى عليك رأيت فيك العلامات التى أخبرنى بها والدى بعينها . فابتهج قلبى لرؤية مهدى الله وخليفة رسوله ... " .(٤١)

وبعد أن بايع الشيخ محمد أحمد ضيفه عبد الله التعايشى اصطحبه معه إلى جزيرة أبا حيث ظل ملازماً له . وسرعان ما كسب عبد الله ثقة شيخه ، وتفانى فى خدمته حتى صار ساعده الأيمن وموضع سره .

كان على الكرار ، الجد الأكبر لعبد الله ، قد هاجر من بلاد الفترى الواقعة بين وادای وبرنو فى أحد أفواج الهجرة المتجهة شرقاً لمقابلة المهدى المنتظر . وسار فى معية الحجاج التكرور ، ولكن يبدو أن فقره ، كحال كثير من قاصدى بيت الله من التكرور ، قد اضطره للتخلف فى ديار التعايشة . فاستقر بينهم وتزوج منهم وانتسب إليهم . وهناك اشتهر ابنه

محمد آدم بالصلاح (وضرب الرمل) ونجح الابن عبد الله فى الاتصال بالزبير باشا فى دارفور فى نحو عام ١٨٧٣م . وقال فى رسالة منه للزبير باشا : "رأيت فى الحلم أنك المهدى المنتظر وأنى أحد اتباعك فاخبرنى إن كنت مهدى الزمان لأتبعك" (٤٢) فزجره الزبير ونفى عن نفسه ما زعمه عبد الله . ويبدو أن محاولة كهذه قد تمت مع الشيخ محمد شريف نور الدائم ، ولكنها قوبلت بالرفض أيضاً . ويحسن أن نأخذ هاتين الروايتين بالحذر لأنهما قد رويتا بعد أفول نجم المهدية .(٤٣)

لما اجتاحت ثورة السلطان هارون دارفور خرج عبد الله وأبوه قاصدين الحجاز ولكنهم حطوا الرحال فى أبى ركبة فى ديار الجمع حيث مات محمد آدم وفيها بقى عبد الله إلى أن جذبته شهرة الشيخ محمد أحمد .(٤٤)

لم يكن عبد الله عالماً كالشيخ محمد أحمد ، ولا صوفياً يعتلى رأس إحدى الطرق الصوفية فى البلاد ، ولكنه كان على الراجح عارفاً بالتيارات والروايات الوافدة من خلافة سوكتو منبئة عن قرب ظهور المهدى فوق أرض النيل . وكان ذلك كافياً لأن يدفع عبد الله لتحقيق ما أوصاه به والده ، من ضرورة لقاء المهدى .

كان ذلك اللقاء ذا دلالة على محمد أحمد نفسه ، وعاملاً حاسماً فى تطور الأحداث ، إذ استبشر الشيخ محمد أحمد بقول عبد الله . ولابد أنه قد دفعه للتفكر فى أمر المهدية خاصة وأنه كان مدركاً لما يتبادله الناس عن (الظهور) فى أفق الترقب والأمل . ويروى شقير أنه (منذ ذلك الوقت أخذ محمد أحمد يبحث عن كنه المهدى وصفاته وعلاماته وما تكون به نصرته ويطبق عليها صفاته) .(٤٥)

يبدو أن لقاء عبد الله بالشيخ محمد أحمد كان بمثابة دفعة نفسية قوية طمأنت محمد أحمد على صدق ما يراه فى نفسه من جدارة وأهلية (لتولى) رسالة المهدية . كان استعداده الروحى والاصلاحى قد اكتمل وكانت الظروف الموضوعية الغالبة على البلد من تزمر وترقب قد نضجت . ومن حينها بدأت الخطوات الإيجابية ، لإعلان الأمر ، تسير سيراً حثيثاً .

تجلت التباشير الأولى فى سلسلة من الهواتف تناديه "يا مهدى الله" ، و "مرحباً بالمهدى" . فأعرض عنها الشيخ محمد أحمد واستعاذ بالله منها ظناً منه أنها من فعل الشيطان . ثم

أصبحت تلك الخواطر يقيناً عندما لقى الرسول صلى الله عليه وسلم فى حضرة (أو حضرات) نبوية وبلغه أنه (المهدى المنتظر) وعليه أن يصدع بالأمر .(٤٦)

بعد هذه الهواتف والحضرة النبوية بلغ الاقتناع الداخلى والإيمان التام بدعوته مداه ... فأسر المهدى الأمر لخاصته من الفقهاء والأعيان ومشايخ الطريقة السمانية ، وكان من أولهم خليفته الأول عبد الله التعايشى . فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٨/ مارس ١٨٨١م اكتسبت حركة محمد أحمد الإصلاحية صفة المهدية .

بدأ المهدى مرحلة التعبئة الإيجابية بزيارة لإقليم كردفان ثانية . وفى دار الجمع التقى بإخوة عبد الله التعايشى فبايعوه . وفى الأبيض جدد صلته بالأعيان والزعماء ورجال الدين وأسر إليهم قائلاً (إن الله قد اصطفاه ليطهر البلاد من الظلم والفساد ولكن وقت ظهوره لم يحن بعد) ثم مر على جبال النوبة ، واختار قدير لتكون مركزاً لهجرته الأولى .(٤٧)

وفى غرة شعبان ١٢٩٨/ ٢٩ يونيو ١٨٨١م أعلن عن مهديته وحث الناس على القيام إلى نصرة الدين ودعاهم إلى التجمع فى أبا فى شهر رمضان بقصد الهجرة إلى قدير . وكانت أولى القبائل تأييداً له دغيم ، كنانه ، الحسنات ، الدويحية ، العمارنة والفلاتة (أو الفلانى) . وبعد انتصاراته الحاسمة على جيوش الحكومة فى أبا ، وقدير ، والأبيض ، وشيكان تقاطر المؤيدون فى أعداد كبيرة وانتظمت روح الجهاد فى البلاد .(٤٨)

عند استيلائه على الأبيض فى يناير ١٨٨٣م بدأ المهدى البحث عن حلفاء خارج نطاق السيطرة المصرية فبعث برسائل إلى زعماء (الغروب) أى حوض تشاد والنيجر . وهذا الاتصال المبكر يعكس صدى التواصل الفكرى الذى تجلى فى تنبوءات الشيخ عثمان بن فودى . ويبدو من رسائل المهدى وخليفته عبد الله إلى (الغروب) أنهما كانا يعرفان الكثير عن أحوال تلك المنطقة وما يعتمل فيها من حركات دينية ، فقد كانا يستقيان معلوماتهما من الرسل والحجاج .

بعث المهدى برسائل إلى زعماء واداى وبرنو وسوكتو طالباً منهم النصرة وحاثاً إياهم على الاستجابة لدعوته والهجرة إليه . ولم تؤد تلك الاتصالات إلى رد ايجابى من محمد يوسف ، سلطان واداى (برقو) أو الشيخ بكر ، حاكم برنو . غير أنها أثارت حالة من الاضطراب

خاصة فى برنو وسوكتو . ووجد نداء المهدى استجابة الكثير من مواطنى تلك البلاد .

وفى خلافة سوكتو وجد المهدى تأييداً عظيماً من الشيخ حياتو بن سعيد حفيد السلطان محمد بلو بن الشيخ عثمان دان فوديو (ت ١٨٩٩م) . كتب المهدى لحياتو من قدير ، وكان حياتو قد غادر سوكتو إلى ادماوا أثر خلاف بينه وبين أمير المؤمنين عمر بن على (١٨٨١ - ١٨٩١م) حول ولاية الخلافة . رحب حياتو برسالة المهدى وأعلن نصرته فى كلمات لامراء فيها وبين عزمه على الهجرة للسودان مؤكداً سعادته بالالتزام بما بشر به جده الشيخ عثمان من تأييد للمهدى عند ظهوره .(٤٩)

عين المهدى حياتو عاملاً على تلك المنطقة ومسئولاً عن الأمور المتعلقة بجماعة سوكتو ، كما أمده ببعض المنشورات لتوزيعها على أمراء سوكتو . لم يجد حياتو تأييداً إلا من جماعات من عامة الناس وأعداد هائلة من اقليم ادماوا ، وإثر ذلك أعلن الجهاد تحت راية المهدى . ورغم أن حياتو نفسه لم يتمكن من الهجرة للمهدى لأسباب يطول ذكرها ، إلا أن أعداداً كبيرة من سكان أواسط بلاد السودان استطاعوا فيما يبدو الوصول إلى وادى النيل وتلبية نداء المهدى .

وتمكن الشيخ جبريل قاينى ، أحد أنصار حياتو ، من تأسيس دولة مهدية هى دولة برمى . وظلت هذه الدولة صامدة حتى عام ١٩٠٣م عندما اشترك بنوها مع أمير المؤمنين ، الطاهر الأول ، فى مواجهة الجيش البريطانى فى معركة برمى (Burmi) .(٥٠)

تمثل محاولات حياتو وأنصاره وغيرهم ممن استجابوا لخطاب الشيخ عثمان بن فودى ولبوا نداءات المهدى بالهجرة إليه رد فعل طبيعى للتواصل الفكرى الذى كان يسود السودان الشرقى وأواسط بلاد السودان .

فى الختام يمكن القول إن الإسلام يشكل حجر الزاوية للتواصل الفكرى بين جهاد الشيخ عثمان دان فوديو وظهور المهدية فى سودان وادى النيل . فقد استقت هاتان الحركتان كثيراً من تعاليمها من مصادر محددة ومتداولة فى أواسط بلاد السودان وشرقيه . فمع القرآن الكريم والسنة الشريفة كان التصوف وأدبياته محوراً هاماً ومصدراً أساسياً لمعرفة الشيخين عثمان دان فوديو ومحمد أحمد المهدى . كما تأثر المناخ العلمى الذى عاشا فيه فى المنطقتين بنتائج حركة الإصلاح والبعث الدينى التى اجتاحت أجزاء كبيرة من العالم الإسلامى فى

القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . كان (الفقراء) المتجولون من علماء ومتصوفة ، وكذلك الحجاج الوافدون من بلاد السودان الأوسط والطلاب هم رسل هذا التواصل . بهذا يصبح الأثر الفولانى أحد التيارات التى ارتكز عليها الفكر المهدىّ فى سودان وادى النيل . ولكنه تيار هام لأنه ظل ينساب فى قوة منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وقد تزامن انسيابه مع الهجرات الفولانية وترافق مع الحجيج المسلم عبر (طريق السودان) . وقد اتسعت حركة الهجرة فيه وزاد ترقب المهاجرين للمنقذ كلما اقتربوا من بلوغ نهاية القرن الهجرى .

من هذا التداخل الفكرى الوافد عبر جسور متعددة يتعذر الحكم القاطع بحجم الأثر الذى تركه خطاب الشيخ عثمان دان فوديو . ولكن رواج تعاليمه وتنبوءاته فى سودان وادى النيل فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر ، والوجود الفعلى لأعداد كبيرة من شعوب حوض شاد والنيجر كان لهما دور كبير فى حث الشيخ محمد أحمد ليفصح عما هيأه الله لإنجازه .(٥١)

الهوامش

١ - S. Biobaku and M. A. Al-Hajj, "The Sudanese Mahdiyya and the Niger-Chad Region" in Islam in Tropical Africa, I.M. Lewis, ed., OUP, London, 1966, PP. 427 - 8.

٢ - T. Hodgkin, "Mahdism, Messianism and Marxism in the African Setting, in Sudan in Africa, Y.F. Hasan. ed. KUP, Khartoum, 1971, P. 113.

٣ - Yusuf Fadl Hasan, "Some Aspects of the Relationships between Central and Eastern Bilad, Al-Sudan" Dirasat Ifriqiyya, VOL X, Dec. 1993, p. 183.

٤ - الشيخ عثمان بن محمد فودى : (تنبيه الأمة على قرب هجوم أشراط الساعة) مخطوط ، جامعة سوكتو ، ص ١ .

٥ - محمد إبراهيم أبو سليم : الحركة الفكرية فى المهدية ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٧٠م ، ص ٤-٥ .

٦ - يوسف فضل حسن : (مسار الدعوة المهدية خارج السودان ، ١٨٨٢ - ١٨٩٨م على ضوء رسائل المهدى وخليفته) فى دراسات فى تاريخ المهدية ، إشراف ، د. عمر النقر ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٨٣م ، ص ١٦٧ .

٧ - ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٥٥٥ - ٦٥٦ .

٨ - الشيخ عثمان بن فودى : تحذير الإخوان من ادعاء المهدية الموعودة فى آخر الزمان ، مخطوط ، جامعة سكوتو ، ص ٢ .

٩ - المصدر السابق ، ص ٤ - ٥ .

١٠ - لعل من المفيد أن أشير إلى تعليق البروفسير محمد أحمد الحاج عن هذا الأمر ونصه : (يبدو أن كتابات الشيخ عثمان عن طبيعة المهدية لا تخلو من بعض التناقض . ففى مولفاته المكتوبة قبل سقوط الكلو يشدد على الأحاديث التى تنشد التعجيل بظهور المهدى واشراط الساعة) .... نقلاً :

M.A. Al-Hajj, The Mahdist Tradition in Northern Nigeria, Ph. D. thesis, ABU, Zaria 1973, pp. 79, 80, وقد ورد هذا النص فى

Asma'u Garba Sa'id, : The Biography of Shaykh Sa'id B. Hayat: The

Exiled Royal Prince, 1923 - 95, M.A. Thesis, Bayero University June 1983. P. 6.

١١ – محمد بلو بن عثمان بن فودى : إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور ، تحقيق Whitting C.E.J. لندن ، ١٩٥٩م ص ١٠٥ ، فى نسخة أخرى نشرتها لجنة برئاسة على عبد العظيم ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص ١٣٨ ، انظر أيضاً :

Bugaje, Usman Muhammad, A Comparative study of the Movements of Uthman Dan Fodio in Early Nineteenth Century Hausa Land and Muhammad Ahmad Al-Mahdi in Late Nineteenth Century, M.A. Thesis, University of Khartoum, 1981, p. 137.

١٢ – ابن فودى ، تحذير الإخوان ص ٧ – ٨ .

13 - Hodgkin "op. cit", Sudan in Africa, P. 113.

١٤ – ابن فودى الشيخ عثمان : تنبيه الفاهم ، نقلا عن

14 - M.A. Al-Hajj, "Hayatu B. Sa'id: A Revolutionary Mahdist in the Western Sudan" in Sudan in Africa, Y.F.Hasan ed. KUP. Khartoum, 1971, PP. 129 - 130.

١٥ – ابن فودى : تنبيه الأمة على قرب هجوم أشراط الساعة ، ص ١٣ وجاء جزء من هذا الخبر ، فى رسالة ابن فودى الخبر الهادى إلى أمور الإمام المهدى ، مخطوط ، سكوتو ، ص ٣ –٤ .

16 - Al-Hajj, "op.cit" Sudan in Africa, p. 130. الذى ذكر أنه قد نقلها عن رسالة

إلى جماعة قوند ، ولكنى لم أعثر على الجملة الأخيرة فيما اطلعت عليه .

١٧ – أبو بكر العتيق : وصية انتقال أهل حوس إلى النيل ، مخطوطة ، جامعة سكوتو .

١٨ – الأم مريم بنت الشيخ عثمان : رسالة الأم مريم بنت الشيخ إلى أمير كانو ، مخطوط من ثلاث صفحات سكوتو .

١٩ – دفتر النجومى ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم ، ص ٥٨ – ٥٩ .

20 - Hasan, "op.cit" Dirasat Ifriqyya, X, P. 186.

٢١ – ابن ضيف الله ، محمد النور ، كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والعلماء والصالحين فى السودان ، تحقيق يوسف فضل حسن ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٧١م ص ١٣٧ – ١٣٨ .

٢٢ – المصدر السابق ص ٧٣ .

23 - J. Levers, "Diversions on a Journey or the Travels of Shaykh

Ahmad Al-Yamani (1630 - 1712) Central Bilad al-Sudan: Tradition and Adaptation, in Y.F. Hasan and P. Doornbos, Khartoum, 1977, p 218, 219.

24 - Bogaje, "op.cit", 131.

25 - Hasan, "op.cit", Dirasat Ifriqiyya, X, 182 - 3.

26 - R. S.O Fahey, State and Society in Dar Fur, C.Hurst, London, 1980, pp. 4 -5.

٢٧ – شقير ، نعوم : تأريخ السودان القديم وجغرافيته ، القاهرة ، ١٩٠٣ ٢ ج ٣/١١٤ – ١١٩، القدال محمد سعيد ، تأريخ السودان الحديث ١٨٢٠ – ١٩٥٥م ، ص ١١٦ – ١١٨ ، أبو سليم ، نفس المصدر ، ص ١٥ ، يوسف فضل حسن ، مسار الدعوة المهدية ، ص ١٦٩ .

٢٨ – يوسف فضل حسن : لمحات من التصوف فى السودان : جذوره وتطوره ، مؤتمر الدراسات الصوفية فى السودان ، جامعة الخرطوم وأخريات ٢٨ – ٣٠ أكتوبر ١٩٩٥م ، ص ١٣ .

٢٩ – القدال ، نفس المصدر ص ١١٠ – ١١٢ ، يوسف فضل حسن ، مسار الدعوة المهدية ، ص ١٦٨.

٣٠ – يوسف فضل حسن ، لمحات فى التصوف ، ص ١٠ – ١٣ .

٣١ – أبو سليم ، نفس المرجع ، ص ٨ ، مكى الطيب شبيكة ، السودان والثورة المهدية من موقعة أبا إلى حصار الخرطوم : دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٧٨م ج ١ ، ص ١٢ – ١٦ .

٣٢ – ابن عربى ، محى الدين : الفتوحات المكية ، القاهرة ، (د – ت) ج ٣/٤٢٩ – ٤٣٣ .

٣٣ – نفس المصدر السابق : ج ٣/٤٣٢ – ٤٣٣ .

٣٤ – أبو سليم : نفس المرجع ، ص ٨ .

٣٥ – الحسن سعد العبادى : الأنوار السنية ، ص ٢٤٦ .

٣٦ – شقير : نفس المرجع ج ٣/١١٩ ، القدال ، نفس المرجع ، ١١٩ .

٣٧ – المرجع السابق : ١١٥ .

٣٨ – أبو سليم : نفس المصدر ، ص ١٠ نقلاً عن تحقيقات المخطوطة توشكى ص ٤٤٥ .

٣٩ – أبو سليم : نفس المصدر ، ١٦ – ١٧ .

٤٠ – شقير : نفس المصدر ، ج ٣/١١٩ .

٤١ – المصدر السابق : ج ٣/١١٢ .

٤٢ – المصدر السابق ج/ ٧١ – ٧٢ ، وذكرت الدكتورة فيفيان أمينة ياجي نسباً مفصلاً للخليفة عبد الله ، كما بينت من أين قدم ، فهو عبد الله بن السيد محمد بن السيد على الكرار بن السيد موسى بن السيد محمد القطبى الواوى ، الذى ينتهى نسبه الى سيدنا الحسين بن الامام على ، سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتضيف الدكتورة فيفيان ياجى أن السيد محمد القطبى الواوى كان شيخاً محترماً عاش فى تونس وبها دفن . وقد غادر ابنه السيد موسى ، تونس بقصد نشر الإسلام فى إفريقيا الشرقية ، وقد صحبه فى رحلته تلك جميع أفراد أسرته وأتباعه ومريدوه . ولكن هذا المرجع لا يبين الطريق الذى سلكه الشيخ موسى ومن وفد معه ، إلى رهيد البردى فى ديار التعايشة بدارفور .

انظر Viviane Yagi, le Khalifa Abdullahi, sa vie et sa politique, Thése de Doctorate Nouveau Régime, Universite Paul Valery, 1990 PP. 59, 60, 566, 567 et 691.

٤٣ – المصدر السابق : ج ٣/٧٢ أبو سليم : نفس المصدر ص ٦ – ٧ .

٤٤ – المصدر السابق ، ص ٧ .

٤٥ – شقير نفس المصدر : ٣/١٢٠ ، P.M. HOLT, The Mahdist State in The Sudan, Oxford, 1970, P. 52.

٤٦ – القدال : نفس المصدر ، ١٢١ .

٤٧ – شقير نفس المصدر ج ٣/١٢١ .

٤٨ – المصدر السابق ج ٣/١٢١ ، القدال ، نفس المصدر ، ص ١٢٣ .

49 - P.M. Holt, "The Sudanese Mahdia and the outside world" Bulletin of the School of Oriental and African Studies XXI, 1958, PP. 285 - 6, AL-Hajj, "OP.Cit" in Sudan in Africa, PP. 129 - 130.

أبو سليم ، محمد إبراهيم ، منشورات المهدى ، ٧٠ – ٧٥ .

٥٠ – يوسف فضل حسن ، مسار المهدية ، Hasan, "op. cit" Dirasat Ifrigyya X, P. 179 دراسات فى تاريخ المهدية ١٧١ – ١٧٣ .

٥١ – أشكر الأستاذين الدكتور الأمين أبو منقا وسراج عبد الكريم بارو على تفضلهما بمدى بمجموعة من المخطوطات من مؤلفات الشيخ عثمان دان فوديو وذويه وكذلك الأستاذه الدكتورة فيفيان ياجى لإرشادى إلى نسب الخليفة عبد الله .